

ضحى شمس*

مشهد الجنوب اللبناني بعد الحرب

لَيْل

تكاد قرقة العوارض الخشبية لجسور الجنوب البديلة من جسوره المدمرة بحرب الصيف الإسرائيلية، والتي تدوي كالقصف لدى مرور السيارات عليها، تشكل الموسيقى التصويرية لمشهد المنطقة ما بعد الحرب، وهي ترافق الذهاب إلى المنطقة المنكوبة ليتسقط أحوالها بعد أكثر من شهرين على نهاية العدوان. وهذه القرقة، التي تستمر أثناء الليل وأطراف النهار، تصم أذان سكان القرى الواقعة بالقرب من الجسور الفرنسية الصنع والإهداء، حتى إن بعضهم راح يفكر في قطع الطريق، ليلاً على الأقل، كما قال أحد أهالي الناعمة في اتصال بإذاعة محلية. يعود إليك صوت الرجل الغاضب وأنت تعبر ليلاً تفادياً لزحمت السير الخانقة التي لا تزال تنتاب الطريق الساحلية كالمغص. يعود إليك كذلك عندما تجد العمال، والساعة تقارب العاشرة ليلاً، ما زالوا يعملون تحت أضواء "البروجكتورات" في ترميم جسر الزهراني المنهار. يتسابق العمال مع أمطار الشتاء ليرفعوا، على الأقل، العواميد التي سينصب الجسر من جديد فوقها. أن ترتفع العواميد، يعني أن ترتفع الورشة عن سطح الأرض فلا تعترض مجرى سيول الشتاء حين تتدفق نحو البحر، ولا تجرف الورشة معها.

ترتاح لانسياب السيارة في الليل. ترتاح عينك تحديداً. لا يمكن للعين إلا أن تقوم بوظيفتها في الرؤية وتلاحظ كل تغيير. لم ترتح عينك بتاتاً منذ الثاني عشر من تموز/يوليو الماضي، فالمشهد بكامله كان يتغير باستمرار من الضاحية الجنوبية إلى هنا، مروراً ببعلبك وعكار: مناطق سكنية تحولت إلى تلال من الردم، قرى محيت وأخرى فرغت. قرى تعج بسكان القرى المجاورة المدمرة، وأخرى تفرق أهلها أيدي سباً. قرى، كعيترون، تحولت إلى ما يشبه المستعمرات الإسرائيلية بسبب بيوتها الجاهزة التي تركب بدلاً من بيوت أهلها. طرقات تحولت إلى أودية، وغابات حلققتها الحرائق كما موسى الحلاقة. جسور تقطعت بها السبل، سماء تختلط فيها الطائرات المدنية والعسكرية، وبحر يلونه التلوث في بقع منه وتظهر فيه سفن ضخمة لم تعدت منظرها. حواجز مستجدة لجنود من جنسيات متعددة، أعلام دول مرفوعة تجعلك تحس بأننا في ما يشبه "المونديال" العسكري. دوريات مؤلفة للجيش اللبناني على طرقات الجنوب التي لم تعدت الكاكي إلا في أليات الجيش الإسرائيلي. فورة في محلات أدوات البناء ومعارض الموبيليا. دفعت المقاومة بدل إيواء وتأثيث منزل لمن دمر بيته تماماً في العدوان. آلاف البيوت دمرت عن بكرة أبيها، كأنك تؤثت بلداً بكامله. الأجهزة الكهربائية المنزلية احتلت الأرصفة في المدن والقرى التي تخترقها: تريد أن يراها المارة من النازحين العائدين إلى قراهم المهجورة، كمن يعرض نفسه بقليل من ابتذال تفرضه المنافسة الشرسة على السوق الضخمة للجنوب المدمر بعد الحرب.

جيش

في العتمة الدامسة لبساتين صيدا التي تضطر إلى اختراقها، كونها الطريق البديل من الطريق الساحلي المقصوف، يلمح السائق بعينيه المدرّبتين بصيصاً بلون أزرق يتحرك كالإشارة على مبعدة في حلقة الليل المفتقر حتى إلى أضواء مصابيح البلدية. يخفف السائق سرعته بشكل ميكانيكي، ويسلط الأضواء "لنكتشف" جندياً لبنانياً في وسط الطريق ممسكاً بمصباح صغير يحاول أن يلفت انتباه السيارات المقبلة إلى الحاجز الذي يشكله هو شخصياً. يطوح الجندي الشاب، كما يفعل شرطي المرور، بذراعه كاملة بشكل دائري في الهواء نحو الطريق السالكة صائحاً في هدأة الليل، ولو بقليل من الإحراج كونه لم يكن هناك غير سيارتنا: "صور من هنا".

وليس بعيداً عن هناك، بالضبط بعد أن نعتلي الجسر الحديدي، الذي نصبه الجيش اللبناني بعد عدوان سنة 1996 بديلاً من جسر الأولي الذي تعرض لقصف البوارج الإسرائيلية أيامها، ننفذ إلى الطريق العام لنكتشف فجأة، وفي وسط الطريق، ما يشبه "مدينة ملاه" من الأضواء الكهربائية الموضوعة كشافاتها على أسفلت الطريق بجانب جنود من قوات الطوارئ الدولية: منها ما يضيء ويطفئ كإشارة السيارة، ومنها ما يدور حول نفسه على غرار كشافات سيارات الإسعاف والشرطة بأضواء ملونة. أهلاً بكم في إيطاليا، يكاد يقول الحاجز التابع للجنود الإيطاليين. لكنه حاجز نتجاوزه بسرعة فائقة: لا سيارات قبلنا ولا بعدنا في هذه المنطقة المقطوعة. يرتبك الجندي الإيطالي لدى رؤية وجوهنا المستفهمة تنظر إليه من شبك السيارة التي توقفت بجانبه. يرتبك وكأنه لا يعرف أن يعمل هذا

الشيء البسيط الذي يعمل به أي جندي علي حاجز: أن يومئ برأسه لتتابع مسيرنا. لا يبدو أن عناصر الحاجز يفهمون لماذا يحطون رجالهم في تلك البقعة ليلاً. نحن أيضاً لا نفهم.

بالقرب من البحر، تجد الفندق العتيق على حاله منذ بدء العدوان: ملأناً بالنزلاء. تغير نزلاء فندق الفنار لصاحبه الخواجا ريمون صالحة. تقول في نفسك إنك لا تعرف لماذا لا يقال لقب خواجا إلا لمسيحي؟! نزلاء الفندق كلهم كانوا من الصحافيين خلال العدوان. اليوم، كلهم من الأمم المتحدة؛ من مكتب الهيئة العليا للاجئين تحديداً. تعاقب على غرف الفندق العشر أكثر من مئتي صحافي من مختلف وسائل الإعلام من مجموع أكثر من ألف صحافي غطوا حرب الصيف. تحولت الغرف، كما البنزين خلال الحصار، إلى عملة نادرة. ووصلت الإيجارات إلى مئات الدولارات في الليلة، مع أن الغرفة من دون هاتف أو تلفاز. لا بل إن إرسال الخليوي داخلها مقطوع نظراً إلى سماكة الجدران الصخرية الأشبه بجدران الأديرة. الفندق كان المنزل العائلي لآل صالحة الذين لجأوا من فلسطين، من يافا تحديداً، إلى لبنان في إثر النكبة. تقاسم الأولاد التركية، وحول المهندس الكهربائي ريمون، تلميذ اليسوعية داخلي، المنزل الأسري إلى فندق، يسكن فيه مع عائلته. الموقع ممتاز: في البحر شخصياً. يعني لو قفزت من الشرفة لوجدت نفسك على الشط، في حين تظلل منارة قديمة، يسمونها الفنار، الشرفة البحرية. في المكتبة القريبة من الحسبة تجد بطاقة بريدية عتيقة لمدينة صور يبدو فيها فندق الفنار كالنقطة الأخيرة من اليابسة، من صور في البحر. يبدو الفندق على خريطة صور كما يبدو رأس الناقورة في خرائط لبنان.

وضع النزلاء الجدد من موظفي الأمم المتحدة في زوايا الفندق طفايات حرائق في كل مكان - شروط عقود التأمين تجبرهم على ذلك كما قال الخواجا ريمون. أوقف موظفو الأمم المتحدة أيضاً حراساً على باب الفندق. هم خائفون على أنفسهم في هذه المرحلة التي يتحولون فيها من قوات مسالمة، على الرغم من سلاحها كما كانت كل الفترة السابقة هنا، إلى قوات يخطط لدورها أن يكون مكان دول الاستعمار السابقة بشك ما. يسألني الحارس حين أخرج ليلاً: أي ساعة سترجعين كي أنتظرك لأقف الباب!! بال الأمم المتحدة مشغول علي - أقول في نفسي. الأمر لا يطمئن.

دخول

"ممنوع دخول الأجانب إلا بتصريح من مخابرات الجيش"، تقول اللافتة في المكان الذي يقف فيه حاجز للجيش اللبناني على طريق الناقورة. يخبرني السائق الفلسطيني الحائز الهوية اللبنانية من دون إخوته، كما قال، قصة تسلل أخيه، المقاتل الفلسطيني العتيق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وبالتالي الأجنبي بحسب القانون، إلى الجنوب المحرر، ممنوع عليه إلا بتصريح، على الرغم من أنف العسكري على الحاجز. شقيقه "يعرف المنطقة شبراً شبراً" كما قال، وليس "كما نعرفها نحن أي من الشوارع فقط"، يقول ذلك في سياق سخريته من محاولات قطع تهريب الأسلحة إلى المنطقة، إلى المقاومة.

الناقورة. البحر الأحلى والشط الناجي من التلوث وبقعة الزيت التي خلفها قصف إسرائيل لمعامل الجية الحرارية، وقصف المقاومة للبارجة الإسرائيلية. التيار المائي يصعد في اتجاه الشمال. لا تلوث ذهب إلى شواطئ فلسطين المحتلة، بل إلى الشواطئ السورية. يقطع استمتاع عينيك بالتزلح على الأزرق الممتد على طول الشاطئ الرائق، ظهور تحويلة تحيك إلى طريق داخلية مفروشة بالحصى. على جانب الطريق جيب عسكري متوقف لجنود لبنانيين بسطوا، على غرار ما يفعله السياح الأجانب، خريطة ضخمة انكب السائق على تفحصها. بدا الجندي تائهاً في التحويلة، وغير راغب في الاستفهام من العابرين على الطريق. لا ينقص الجيش اللبناني المنتشر حديثاً إلا أن يظهر جهله بجغرافيا المنطقة لمواطنيه من الجنوبيين القلقين عليه وعلى أنفسهم من قلة تجهيزه وخبرته. لا يخرج الجنود في جهلهم ذاك عن وضع أغلبية اللبنانيين. كان الجنوب محتلاً فترة طويلة. اليوم، تأتيه سياحة داخلية غير محسوبة أو متوقعة. سياحة الحرب: تندفق الأفواج للتفرج على القرى المدمرة. من لبنان، ومن الجنوب تحديداً، إضافة طبعاً إلى الخارج. الصور التي نقلها الإعلام العالمي عن شراسة الحرب الإسرائيلية على المدنيين، أثارت غضب المدنيين مثلهم. يريدون أن يروا بأعينهم ما رأوه بأعينهم على الشاشات. كأن المشاهدات على التلفاز لا تشفي غليل التصديق. الناس تقول أنها تأتي للتضامن، لكنها أيضاً تأتي لتتفرج. لا تعارض بين التضامن والتفرج. لا بل إن الثاني ضرورة للأول. فالبعض يشكك في صدقية الصور التي نقلتها شاشات التلفزة. وهناك حملة للتشكيك في صور المجازر التي ارتكبتها إسرائيل ضد المدنيين اللبنانيين، وقد أصبح لها مواقع على الإنترنت. مصور لبناني يعمل مع "رويترز" أعطاهم الحجة. لم تعجبه كمية الدخان المتصاعد من قصف الضاحية،

فما كان منه إلا أن "كثّفه" ليصبح أكثر تعبيراً!! طُرد المصور من الوكالة. لكن سيل التشكيك لم يتوقف هنا. انتقل إلى صور قانا 2، ومروحين، وزبقيين، والجمالية، والشياح، والحیصة، إلخ.

سوق الجنود

بالقرب من مرفأ الناقورة الذي كان منفذ الاحتلال والتهريب، يستمتع شاب وفتاة بدا أنهما أجنيان بالشمس على صخرات داخل البحر. هي بالبكيني، وهو بالمايوه يأكل "سندويتشاً" باسترخاء تام وقد عرّض بياض جلده وشحوبه لأشعة الشمس. لن يكون هذا المشهد ممكناً تماماً على شاطئ صور، ولا سيما إن كان البيكيني لبنانياً وخارج حدود حارة النصارى. هنا أنت في "حرم" منطقة اليونيفيل حيث كل شيء مباح. ترجح أنهما جنديان. ليس هناك من لباس بحر مرقط - تقول في نفسك - مع أن البحر شخصياً يكاد يصبح مخيماً للعسكر.

انتعشت سوق الناقورة، السوق التي نشأت في أثناء الاحتلال الإسرائيلي قبل التحرير، والتي كانت تطعم الجنود بكامل فئاتهم: طوارئ، أو جيش لحد، أو إسرائيليين. كانت هذه السوق قد ماتت شيئاً فشيئاً بعد التحرير كما مات كل شيء ارتبط اقتصادياً بجيش لحد وإسرائيل. لم يكن قد بقي منها إلا رفق خفيف. اليوم هي أشبه بدكاكين محطات القطارات. الكل يمر من هنا، أو يمكث قليلاً في انتظار محطته المقبلة. أصبحت مجدداً سوق الجنود.

لا يفصل بين المحلات المترصة على خط واحد كشاليهات البحر، وبين مقر الطوارئ المقابل، المبني هو الآخر أفقياً، إلا طريق الأسفلت. تتوالى المحلات كأعشاش الرزق: هنا تباع الصبية المحجبة، هبة السيد، ملابس رياضية للجنود. أبعد منها دكان للتذكارات وبطاقات المعايدة، بعده للهواتف الخلوية وما يقترب منها، إلخ. أكثر الجنود هنا من الفرنسيين، كما تقول. وهم الأكثر رغبة في الجدل معها بشأن حجابها. يفعلون - بحسب ما تقول - "ومهما شرحت لهم لا يقتنعون".

على مدار الوقت يمر جنود من كل لون وعرق ولغة، لا يجمع بينهم إلا لون الأمم المتحدة الأزرق واللغة الإنكليزية. يتفرج اللبنانيون على "الطوارئ". يساعدهم اصطفاؤهم في دكاكينهم ووجوههم ومداخل محلاتهم مصوبة، كما في السينما، على شاشة اليونيفيل.

لكن هبة لا تزال قلقة، كما معظم جيرانها من أصحاب الدكاكين، لمعرفة المكان النهائي الذي ستمركز فيه القوات الدولية، مورد رزقها، التي ارتفع عديدها إلى ما يقارب ستة آلاف. "اللبناني لا يشتري (الاسبادري) [الحذاء الرياضي] بمئة ألف ليرة. مع أنها بضاعة أصلية. اللبناني، أصلاً، لا يعرف البضاعة الأصلية حين يراها"، تقول مضيفة: "جنود اليونيفيل بلى. هي صناعتهم ويعرفونها ولذلك يدفعون ثمنها." وتصنف هبة، يعاونها الشاب ربيع مصطفى، العامل معها، الجنود طبقات بحسب قدرتهم الشرائية وتعاملهم مع الأهالي. وتبدأ من المرتبة الأخيرة تماماً كما مباريات ملكات الجمال، "يعني الصيني لما بتقولي له إن كل (تي شيرت) بخمسة دولارات يندهش. ويقول إنه في الصين كل ثلاثة دولار واحد!" ينتقل الاستياء من الصينيين، الذين سقط لهم "شهيد" بالقصف الإسرائيلي خلال الحرب، إلى مصطفى. يقول: "إنكليزيتهم عجيبة غريبة. كما أن من المستحيل أن تعرفي واحد منهم من الآخر!". يظهر اللبنانيون عنصريتهم "الفطرية" في كل مناسبة. يعيشون على الغريب، ويكرهون الغريب ويسخرون منه، خفية طبعاً. لكنه لا يخفي اعتداده بالكلام الذي تعلمه منهم. "بتعرفي شو يعني نيهوا؟" لا ينتظر الجواب قبل أن يجيب: "يعني مرحباً بالصيني. وتشي تشي يعني شكراً. بدك إسباني؟ بوناس دياس." أما بالنسبة إلى هبة فالغانيون هم "أحلى شعب" لأنهم "عندما يصادقون لا يتركون صديقهم أبداً. مثلنا، أبناء قرى." وماذا عن الباقيين؟ تقول: "الفرنساوية فرطين [مبذرين]. الغانية بيحارجو [يسامون]. الإسيان يعلمون تماماً ماذا يشترون، والإيطاليون أصحاب أعلى معاشات لأنهم من سلاح الطيران وكرماء." تضيف هبة: "كما أن معاشات البولونيين زادت فصاروا يشترون."

ينضم مراهقان صغيران إلى حلقتهما. نور (17 عاماً)، وحسين مراد (22 عاماً). بيتهما يقع ضمن المنطقة العسكرية الحدودية في رأس الناقورة، والتي أصبحت محظورة على الصيد والسباحة لأسباب أمنية. لكن نور يؤكد أنهم، أي الجيش، يتركونه يسبح ويصطاد لأن "بيتنا هناك". يؤكد نور، متوقعاً الاندهاش نفسه الذي يشاهده على وجوه أترابه عندما يخبرهم بلا شك، أن هناك "بنات" بين عناصر اليونيفيل. أما حين نلبي توقعه ونندهش، فتندفق المعلومات والتصنيفات: "في بنات على الماغ [مضاد للطائرات]. في بنات بتحرس مثل الرجال. في بنات على الملالات.. بتسوق ملالة، عادي. بس شو بنات! رجال." يؤكد حسين أن "أحلاهن الإسيانيات لأنهن يشبهن اللبنانيات كثيراً." أما الفرنسيات، فهن "كارثة.. كلهم سود." يقول مصطفى كمن يفكر بصوت عال: "بيكونوا

مجوزين مع غانبيين بيقوموا بيطلعوا هيك." تمر جنديّة سمراء صبغت شعرها بالأشقر، فيشير حسين: "هاي إسبانية. شفت شو بتشبه اللبنانيات."

في أحد الدكاكين المجاورة، جلست هناء تبيع "التحف والتذكارات" تحت صورة للسيد حسن نصر الله. تنفي هناء أن يكون في تعليقها لصورة السيد في صدر دكانها إقفال لباب رزقها. لا بل إنها تؤكد أن بين الجنود، الفرنسيين خاصة، من يحب.. الحزب. "أكثرهم من التونسية والجزائرية والمغاربة. بيحكوا عربي"، مستدركة: "لكن بيحطوا على كل واحد منهم، راقوب واحد أجنبي." تقصد فرنسيّاً من أصل فرنسي ليراقبه. تتذكر معركة منع تلفزة المنار التي خاضها الأوروبيون، بحرية فرنسية بشراصة. تسمع السيدة المحجبة هي الأخرى تؤكد لك أن "الإيطالية طلبوا مرة كنازي [جمع كنزة صوف] عليها شعار الحزب. ومرة جاءني فرنسي اشترى خمسين قداحة عليها شعار حزب الله، ثم أرسل إليّ صديقه يريد الشيء نفسه فقلت له أن يطولّ باله لأطبع غيرهم!" لا يخطر ببال السيدة تفسير دوافع استهلاك بعض جنود اليونيفيل لكل ما يحمل شعار الحزب إلاّ من باب المحبة له.

حرارة

تلفّ الكوع وتنطلق متتبّعاً شريط القرى الأمامية. تمر بالناس العائدين منذ برهة إلى ما سلم من بيوتهم وأرزاقهم، فلا تجدهم كما بعد كل حرب. لم يكونوا هكذا بعد عملية "تصفية الحسابات" سنة 1993، ولا بعد "عناقيد الغضب" سنة 1996، ولا بعد التحرير، بالتأكيد. هذه المرة، بعد نجاح المقاومة في دحر القوات الإسرائيلية، شيء ما يجعل فرحة الناس ناقصة. هل هو الإحساس بالخسارة المهولة؟ ربما. يبدو الجنوبيون كالتفّ من المرض؛ كمن ما زالت درجة واحدة من الحرارة تصيبهم بانحلال للقوى يظهر على وجوههم الشاحبة وعيونهم الفاقدة لمعانها. تراهم يقومون بطقوس حياتهم العادية كمن يتوقع أنه بمجرد قيامه بهذه الطقوس سيستعيد حياته السابقة للحرب، قبل كل هذا الدمار الذي يراد لهم أن يستأنفوا حياتهم "الطبيعية" بين أنقاضه.

تلفّ الكوع وتنطلق مخترقاً القرى الأمامية. لا تزال بيوت الناقورة المدمرة مدمرة. لم يرفع أحد الأنقاض التي علق عليها حزب الله "يافطات" بالإنكليزية والفرنسية تقول: هذه هي ديمقراطيتكم. اللوحة القديمة الضخمة للخميني التي أصيبت بالحرب، جرى استبدالها. يبدو الخميني بأحسن حالاته فيها، عكس ما حوله. تمازج نفسك أن هواء البحر يلائم قائد الثورة الإيرانية الراحل.

جيش ثانية

"علما الشعب منبت العمدا ترحب برفاق السلاح"، تقول "اليافطة". ها هي القرى تتبني قاموس المرحلة ورموزها. الجنوبيون مسرورون بانتشار الجيش. "إنهم أولادنا"، يقولون لك. يردف بعضهم: "تماماً كالمقاومة". تشغل خلطة الجنود من جيش وطوارئ ومقاومة، بال الجنوبيين. تلمح السؤال، الذي يتحايلون على تناسيه طوال الوقت، ملتصقاً بهم كالظل: هل ستمكن هذه القوى من الدفاع عنهم؟ ومن، بينها، سيدافع فعلاً عنهم؟ ومن سينجح؟ ومن سيتبين أنه حصان طروادة؟ يكره أكثرهم التفكير في الإجابة. أمّا اليوم، فهم يريدون أن يفرحوا بانتشار الجيش إلى جانب قوات اليونيفيل، مع أنهم يعرفون أنه انتشار سياسي. الشيء الوحيد الذي لا يشككون فيه هو أن إسرائيل ستضرب من جديد.

"والله عندما تمر شاحنة الجيش من فرحتي أدعو: الله يشرحلها ويفتحها"، تقول الحاجة من آل فنش في الضهيرة، القرية السنية، وهي ترسل قبلة في الهواء لشاحنة الجيش التي مرت للتو متبوعة بعدة آليات على الطريق العام قبالة منزلها. ثم تردف وهي تقدم لنا القهوة على المصطبة: "الجيش مين؟ بلدك وولادك." ثم تختم بهذه الحكمة: "ما منحب حدا يحتل لبنان غير لبنان." تخبرنا الحاجة عن زمن ما قبل التحرير: "ليش الولاد كانوا يعرفوا بلدهم؟ كان عندي شاب عمل عسكري، أنا كنت آخذه وأجيبه إلى بيروت. بلده وما بيعرفه!" أمّا الآن وقد انتشر الجيش والطوارئ تعززت، هل يحسون بالأمان؟ يجيب طارق، الصهر الذي كان يجالسنا في الباحة مع بناتها الثلاث وبينهن زوجته: "إذا إسرائيل كانت تريدني، ستدخل وتأخذني. من يردّها؟"

ينضخ الخوف أيضاً من إجابة رلى، ابنة الحاجة، فتقول إن جنود الجيش اللبناني "جاين عالموت". ثم تردف: "أي فتية، سيذهب الجيش كبش محرقة فيها، لن يتأذى أحد غيرهم. استطاع الحزب [حزب الله] مواجهة إسرائيل. لكن الجيش لا معدات له كالمقاومة." تتحسر الحاجة، ربما لأنها تتصور ابنها معهم، "شاحتهم يا ولدي كل شوية تخرب."

تخبرنا العائلة عن جلجلتها خلال الحرب. كل بيت نزل إلى جحيمة الخاص. يخبرونا عن مقتل أقارب، وعن هروبهم إلى الناقورة ملتجئين إلى "الطوارئ". يقولون لنا إن جنود اليونيفيل أنجدوهم، على عكس ما يقوله أهالي قرى أخرى. يفسر طارق الأمر لنا: الجنود أدخلوا الناس، لكن المراقبين الدوليين (الأونسو) جاؤوا وقالوا لهم إنه ممنوع، كان ذلك يوم مجزرة مروحين. هكذا وقعت المجزرة. ثم تقول الحاجة: "طالما في إسرائيل، ما في سلام. فات الحزب ست سنين، والله أشرف منهم لم أر." يصادق صهرها على كلامها: "من خيرة الأوامر." تتحمس رلى: "كنا ننام ولا نحس بشيء. اليوم صرنا ننام ونخاف. بكرة سنخاف ولن ننام." تعترض الحاجة من دون حماسة: "صار في جيش"، ترد رلى: "والله لو صرخوا الإسرائيلية بالجيش: إرفع سلاحك، ليكون مسلم فوراً." ينتاب الجلسة ضحك يرافق فك أسر الكلام. "إن شاء الله ما حدا يقعد على الحدود إلا نصر الله"، تقول رلى. تثني أختها منى على كلامها: "كلنا إسلام"، مشيرة إلى كونهم من السنة في حين أن حزب الله شيعي.

يميز طارق موقفه: "نحن مش ضد الحزب، بس الدولة أفضل." تجيبه زوجته: "لكن حزب الله هو القادر على المواجهة." نسأله وعيننا على صورة الحريري المعلقة في الدار إلى جانب صورة السيدة مريم والدة المسيح، إن كان مع المقاومة أو ضدها. يسألنا: "قصداً لأن الشعب [في الضهير] سني ويتمثل بتيار المستقبل؟ لأ. الحريري مع المقاومة." لكن، وماذا لو لم يعد كذلك؟ يجيب: "سيكون موقفه هذا موقفاً شخصياً يمثل ولا يمثل الشعب." نفهم بعد قليل أنه كان للمقاومة موقع غير بعيد عن منزلهم، وأن الشباب كانوا يتفقدونهم خلال الحرب حاملين إليهم الحاجات الضرورية خلال الحصار.

مساعداً

تقول في نفسك إنك ستفقد الناس الذين سبق أن تعرفت إليهم في مروحين. تضرع المرور على أبو نايف العبد الله، الثمانيني، الذي كان بقي في القرية المنكوبة بمجزرة راح ضحيتها 23 شخصاً معظمهم من أقاربه. بقي أبو نايف وصديق عمره وحدهما في القرية بعد أن هرب أهلها في إثر المجزرة مستنجدين ببوسطات الحريري، كما قالوا لنا. أبو نايف لم يرد البقاء من أجل الصمود والتصدي. فهو في الحقيقة خاف كثيراً أن يقتله الإسرائيليون لو قصفوا البوسطات كما سبق أن فعلوا بالشهداء الثلاثة والعشرين الذين كانوا يهربون. فهم أبو نايف، وصديقه، أن الحرب الإسرائيلية هي على المدنيين. لا تزال مقبرة مروحين الجديدة، حيث دفن الشهداء، غير مصبوبة بالباطون. كان عليها أن تنتظر عيد الفطر، والزيارة السياسية المرتقبة للمقبرة المتحولة إلى منبر سني في مواجهة "ترسانة" الشهداء الشيعية، لكي تنعم بالباطون السياسي. الباطون نجم المواد الأولية في الجنوب بعد أن كان البنزين هو النجم خلال الحرب. المواد الأولية كلها تأتي إلى الجنوب من السياسة: باطون، بنزين، أسفلت. حتى مياه الشرب! مياه للشرب مجانية من الجماعة الإسلامية، تقول "اليافطة" التي علقت في يارين. غير بعيد عنها خيمة "إفطار الصائم" الإماراتية الخالية من أي شخص. سنة قطر والإمارات يريدون منافسة السعودية في نفوذها على سنة لبنان لمزيد من النفوذ في الصراع العربي - الإسرائيلي.

لا شيء في لبنان من صنع لبناني. حتى القماش البلاستيكي الذي وضع على الشبابيك العواء الفاقدة زجاجها، متخلف عن أكياس المساعدات الأجنبية: الأونروا، أو أكياس طحين مصرية وجزائرية كما يبدو من الشعارات المطبوعة على القماش.

أمّا في بلدية مروحين، فصراخ وشتائم تتطاير مبددة سكون القرية العميق. أناس يدخلون، وأناس يخرجون غاضبين، وأناس يحاولون الإمساك بآخرين يريدون الرحيل غضباً. الجميع يتشع بالسواد. تفهم، بعد أن توقفت للسؤال عن الطريق، أن خناقة دبت في مركز البلدية بين أهالي الشهداء وأهالي المعوقين والبلدية بشأن توزيع المساعدات التي كنت تراها من هنا في كراتين عليها ملصقات زرق كتب عليها "الجمعية المسيحية الأورثوذكسية الدولية". تخرج سيدة عجوز بلباسها القروي من البلدية مسرعة وهي تحمل كرتونتين. تبدو كمن "قاز" بالكرتونتين بصعوبة بالغة ويخاف أن يستعيدهما أحد منه. يتهلل وجهها حين نناديها لتركب معنا السيارة كي نوصلها إلى بيتها بكرتونتيها الثقيلتين، في حين تخرج سيدة متشحة بالسواد وقد جن جنونها، لتركب سيارتها صافقة بابها بعنف ومنطلقة بسرعة أثارت الرمل أمام المركز. تخبرنا عزبا بوعلي غنام (70 عاماً) ونحن نوصلها إلى بيتها بالقرب من المسجد: "ترملت وأنا بنت ثلاثين." أمّا حين نسألها عن سبب الخناقة، فتجيب إنها بسبب احتجاج ابنة الشهيذة وطفة أبو هدلة على طريقة البلدية في توزيع المساعدات على أسر الشهداء من دون المعوقين، وهي لديها ابنة معوقة. تسأل نفسك عن ماهية هذه المساعدات التي تبدو شديدة الأهمية لأهالي القرى إلى درجة الخناقة.

تنزل عزبا، التي لها ثلاث بنات وثلاثة شباب، أمام بيتها بكرتونتيها. تقول لنا أنها لا تعرف ما في داخلها؛ فهما مجرد مساعدات، وهذه حصتها. نقترح فتحهما فتوافق. نفتح كرتونة وعزبا، التي شكت طرف فستانها بدكة بنطالها التحتاني، تنظر وتنتظر بلهفة طفل أمام هديته. لا أعرف ما الذي كانت عزبا تنتظر أن يخرج من كرتونتها. لكنها بدت بشكل تسلسلي: ملهوفة، ثم خائبة، فقائعة، ونحن نعرب لها من كرتونة الأدوات المنزلية: شفرات الحلاقة ماركة بيك، الصابون، فراشي الأسنان، الملاعق والأكواب والمحارم ودواء الجلي.. وأقلام التلوين. كل شيء في مروحين يكاد يكون من المساعدات: نفايات ما زالت تحمل علامة "دولة قطر"، وخزانات مياه مطبوع عليها شعار "مؤسسة الإسكان التعاوني". يعيش الناس هنا من نفايات السياسة. شراسة السياسيين التي لا تقارن بمصادرة أحزان الناس وآلامهم: ما زلت أذكر صورة تابوت مريم، الشهيدة في المجزرة الشهيرة، يوم الدفن، وهو ينزل إلى مثواه الأخير مغلفاً بملصق طبعه "تيار المستقبل" بدت فيه الشهيدة في صورة مركبة مع.. رفيق الحريري، مع عبارة "اشتقناك"! نزل شعار "المستقبل" معها إلى القبر. إنه مستقبلها، في وطن الطوائف الأيديولوجية. "تيار المستقبل" هو "سبنسور" مجزرة مروحين. وأنت تخرج من مروحين في اتجاه عيتا الشعب، تلمح لافتة "أرض للبيع" مزروعة على مفترق إحدى القرى السبع المحتلة، طريخا، بالقرب من أسلاك الحدود الشائكة. تضحك لظرف الرجل المتفائل الذي يريد أن يقنع الناس بشراء أرض بمحاذاة إسرائيل.

صداقات

"الحمد لله التي صارت الحرب حتى تشتهر عيتا الشعب"، يقول الشاب الذي اصطحبنا معنا ليدلنا على الحسينية حيث كان من المفترض أن نقابل كويفا باترلي، الإيرلندية الصديقة التي أثارت إعجاب اللبنانيين باختراقها المؤتمر الصحافي لرئيسي الحكومة اللبناني والبريطاني في القصر الحكومي خلال زيارة هذا الأخير في إبان العدوان، بياض كعب عليها "إخجل من عنصرية إسرائيل". بقيت كويفا وأعضاء جمعية "صامدون" في عيتا الشعب خلال الحرب، وحتى خلال الوجود الإسرائيلي في الأطراف. لم يتركوا القرية المنكوبة بدمار شبه كلي لبيوتها. بقوا هم أيضاً صامدون. حجم الدمار ينبئ بشراسة المعارك التي رفعت اسم عيتا الشعب كالراية في نشرات الأخبار على مدى أكثر من ثلاثة وثلاثين يوماً. لم يخرج الإسرائيليون من عيتا الشعب في 14 آب/أغسطس يوم وقف الأعمال الحربية، وإنما خرجوا بعد ذلك بأسابيع. بقوا، هم أيضاً، "صامدون" في البلدة المنكوبة، وتحديداً بقرب مدرسة المعوقين ذهنياً على إحدى التلال المواجهة لمستعمرة زرعيت. لا بل إنهم خطفوا من المدرسة أستاذاً وثلاثة مدنيين جاؤوا يتفقدون المدرسة بعد وقف إطلاق النار.

"وينك يا حلوة؟" تسأل كويفا على الهاتف حين أخبرتها أننا في "ديارها". لهجة الفتاة، حين تتكلم العربية، فلسطينية اكتسبتها من إقامتها الطويلة هناك، قبل أن ينجح الإسرائيليون في طردها. التقينا في "متوسطة عيتا الشعب الرسمية المختلطة"، حيث كان من المقرر أن تقام دورة بالإنكليزية للطالبات، إلا أن الأستاذ علق في زحمة سير ما، فكان على كويفا أن تلهيهم قليلاً في انتظاره. نجدها على باب المدرسة التي كان ترميمها جارياً، وقد لفت غطاء ظريفاً على رأسها. حجابها ليس صارماً كما هو حال بنات القرية المحيطات بها، لكنه يفي بإيصال إشارة لمن يهيمه الأمر من أهالي البلدة، بطلب القرب الاجتماعي السياسي.

سيدة أجنبية كبيرة في السن تقف إلى جانب الناشطة الإيرلندية، إضافة إلى رجلين أجنيين. السيدة تبدو من حجابها أنها تعلمت لبس الحجاب من بيئة سنية متشددة. يشبه حجابها ما نراه في حوار الشام التقليدية.

في قاعة الصف، تتحلق الفتيات حولنا متنافسات في إخبارنا بما عشنه خلال الحرب. تشير مروى بيضون طالبة المهنية، قسم المحاسبة، عبر النافذة إلى الجانب المدمر من عيتا الشعب. "كل الدمار اسمه الضيعة. أصبحت عيتا مكونة من قسمين: جهة أصبحت بعد جرف الردم ملعب فوتبول، وجهة مرصوفة بالناس الذين كانت بيوتهم مكان ملعب الفوتبول. يعني كل بيت سلم هنا، تسكن فيه على الأقل عائلتان اليوم"، تقول.

لا يريد الأهالي الذين دمرت بيوتهم وقبضوا تعويض إيواء وأثاث من حزب الله أن يغادروا القرية. لكن، لا بيوت للإيجار في القرى. فما العمل؟ "عم يستحدثوا الناس بيوت للإيجار"، تجيب زينب علي فقيه التي دمر بيتها بالكامل. أمّا كيف ذلك؟ فتقول: "عم يسكروا الكاراجات، وسرية المعزى والبقر [الزرائب] ويؤجرونها". لا يريد الأهالي هجر البلدة. من لم يجد حلاً في عيتا، ذهب إلى رميش أو رامية، القريتين الملاصقتين، مستأجراً.

نقول لهم: أحسن، فالاختلاط الطائفي جيد. فترد زهرة عباس جعفر ضاحكة: "السيد [حسن نصر الله] جعلنا ناخذ على بعضنا". حل الود محل العداوة القروية الطائفية السياسية التي كانت بين البلدتين الشيعية والمسيحية.

الاجتياح العوني لرميش، التي لجأ إليها أهالي عيتا الشعب في الحرب الأخيرة، دفع الرميثيين إلى رؤية جيرانهم بعيون الاتفاق بين الجنرال ميشال عون، رئيس التيار الوطني الحر، وبين السيد حسن نصر الله. أهالي عيتا أيضا حفظوا لأهالي رميش، التي كانت من الأشد ارتباطاً بإسرائيل قبل التحرير، جميل استقبالهم.

تتبارى سارة سرور (16 عاماً) وأترابها المحجبات مثلها، في رواية ما جرى معهن في رميش: "اختلاط بنات وصبيان في غرفة واحدة، الشرب من بركة مياه مخصصة للبهائم لأن لا وقود لسحب المياه من البئر، قعدنا بلا اغتسال ولم نكن نخلع المناديل عن رؤوسنا. قمل وجرب، أمراض كالصفيرة والزكام، طفرات حبوب وبثور غير مفهومة الأسباب.. فاضت الجور الصحية، انقطع الخبز فصرنا نأكل بأصابعنا ثم انقطع البسكوت." وتضيف إحداهن وهي تضحك: "لم يبق في رميش إلا الويسكي والبيرة."

يخبرونا عن جلجلتهم في العودة إلى الضيعة تحت قصف الطيران لجلب المياه أو الثياب أو الأدوية. يخبرونا عن هروبهم وانقطاعهم من الوقود على الطرقات، وسعر صفيحة البنزين الذي تجاوز المئتي دولار، وأجرة السيارة التي فاقت الألف دولار. يخبرونا عن المستغلين وتجار الحروب والعملاء، الذين كانوا ينشرون الشائعات. يشكرون بأهل رميش الذين "كانت معاملتهم كثير كثير منيعة: أطعمونا وشربونا..". تقاطع مريم سرور: "لأ لم يطعمونا وشربونا، كنا نشترى أكلنا، لكننا قعدنا ببيوتهم. لكن المياه كانت مشكلة: مين عنده بير، باعنا نصف نقلة بـ 68 دولار." يخبرونا أيضاً أن بعض الاستغلاليين من أصحاب الآبار كان إن عزم على النزوح إلى بيروت، يفرغ بئرهم ويبيع المحتويات للنازحين. لكن، أليس ذلك بسبب أنه يريد شراء الوقود الضروري لوصوله، لأن أسعار الوقود والنقل كانت جنونية؟ "يمكن"، تجيب الفتيات من دون القدرة على فهم كيف يمكن لأحد أن يبيع المياه لعطاش محاصرين. هي تربيتهم الكربلائية ربما التي ترفع العطش إلى مرتبة البلوة الكبرى.

مخطوف

طاهر الطحيني هو الأستاذ الذي خطفته إسرائيل مع أربعة لبنانيين من داخل مدرسة ذوي الحاجات الخاصة التي جاءها ذات هدنة خلال الحرب. لا تكاد تصدق، وأنت تسلك طريقاً يكاد المعزى فقط يستطيع تسلكها، أن من الممكن أن تقام مدرسة هنا، على بعد عشرات الأمتار فقط من الشريط الحدودي الذي تقبع خلفه مباشرة مستعمرة زرعيت. تبدو الطريق غير مطروقة كثيراً: لا تزال جيف حيوانات نافقة من الحرب الأخيرة، تتأكل بفعل الشمس. رائحة الموت التي طبعت مشهد الجنوب في ذاكرتك خلال الحرب الأخيرة، تفوح قوية هنا. تتذكر أنك لم تشمها هذه المرة وأنت تخترق القرى المنكوبة.

أعمال الترميم في المدرسة، التي تتسع لنحو 80 طفلاً معوقاً ذهنياً، على قدم وساق. يدلنا عبد الله، ابن مديرة المدرسة الذي كان يمسك الورشة التي نشط فيها عمال سوريون وفلسطينيون، على منزل الأستاذ المخطوف الذي جئنا نسأل عنه. نعاود النزول صوب القرية. وعلى مصطبة منزل ذي جدران متفسخة، روى الأستاذ، الذي كان والده ممدداً على ديوان خشبي بجانبه، طبعاً قصة خطفه. لكنه رواها كمن سبق أن رواها مليون مرة للصحافيين والأهالي والأجهزة الأمنية. ملّ الناس من رواية مصائبهم وأحزانهم. لم تعد روايتها مدهشة لهم. باتت محزنة ومتعبة فقط. يتذكرون الأهم حين يروونها. ننسى أنهم يتذكرونها أيضاً حين لا يروونها، عندما ينامون، في كوابيسهم التي زادت في استهلاكهم للحبوب المنومة.

يخبرنا الأستاذ طاهر، بحماسة أكبر، أنه ما زال يعيش في بيته الآيل إلى السقوط، مع أنه قبض بدل إيواء وأثاث من حزب الله. فهو لا يستطيع ترك عيتا الشعب حيث يعمل في المدرسة التي خطف منها. وبالتالي هو ينتظر، مثل كثيرين غيره، ترميم بيوت الأهالي الذين لا يمضون إلا الصيف هنا، مردفاً بتعب: "بس هلق حتى يدفعوا الترميم." الثياب العسكرية المنشورة على شرفة منزل منير العميل في رميش، هي التي جعلتنا نختر بابها لنطرقه. كلمة "العميل" هي اسم شهرته. لم يكن رجل البيت هناك حين وصلنا. كانت زوجته واقفة تطبخ، وقرية لها تشرب القهوة معها في المطبخ. يتمم أهل رميش، حين تخبرهم عن عرفان أهل عيتا الشعب لهم، في منزلة بين الفخر والخجل بأن ما فعلوه لم يكن أكثر من واجبهم. لا تكرهوا شر الحرب لعله خير إعادة الود بين من فرقته الطوائف عن وطنيتهم. حل ود الصداقة الذي لا يذهب بسهولة محل النفور: الصديق عند الضيق. هل كان هناك أضييق من الحصار الإسرائيلي؟

"ولو ما نحنا أهل"، تقول أم هشام، زوجة منير العميل، وهي تنزع عنها مريول المطبخ لتجلس بجانبنا. لكن أم هشام سرعان ما تتنهد وهي تسر إلينا: "لكن الناس بعدها مش قادرة ترتاح. ليس هناك ما يطمئن بوجود إسرائيل:

لا أحد يستطيع الوقوف بوجهها"، مستطردة: "جيشنا ليس جيش حرب. وما قد يحصل في المستقبل يخيف الناس التي ستنهار لو تكرر."

"بدنا نعرف إذا كنت من ديننا، لنعرف شو بدنا نحكي"، يبادرنا زوجها، الأستاذ المتقاعد منير العميل، بـ "صراحة" ساخرة ومتهكمة، عندما نسأله عن مخاوفه بعد انتشار اليونيفيل والجيش والتزام المقاومة بالقرار 1701، لافتاً بجوابه هذا إلى مدى وعي الناس لتحزب وسائل الإعلام الفاضح خلال الحرب. لا يثق الناس بوسائل الإعلام اليوم. وانعدام الثقة يتفاقم منذ اغتيال الحريري. كل واحد من المواطنين يتابع وسيلة الإعلام التي "أنتجتها" طائفته: "صوت لبنان" و"إل. بي. سي." و"لبنان الحر" لليمين المسيحي الموالي للغرب ولا يخفي رغبته في أي سلام مع إسرائيل؛ "الفيوتشر" و"إذاعة الشرق" للسنة المواليين للسعودية وبالتالي للأميركان؛ "المنار" و"إذاعة النور" للشيعة فرع حزب الله، وبالتالي لإيران وسورية؛ "إن. بي. إن." لتلفزيوناً وإذاعة للشيعة فرع حركة "أمل" ونبهه بري. الجرائد أيضاً اجتاحتها تيارات التجاذبات السياسيوطائفية. أصبحنا كلنا صحافة ما يشبه "الجمهور عايز كده". "اليونيفيل، هذه هي نقطة السر. معنا أم ضدنا؟ أم تقف فقط على الحدود؟ أم تحمي حدود إسرائيل؟" يتساءل الأستاذ المتقاعد، والذي يعمل اليوم في الزراعة في أرضه، مضيفاً: "يومياً هناك اختراقات واستفزازات إسرائيلية، نفذنا القرار 1701 في حين أنهم لم يطبقوه."

ولكن، ماذا لو اعتدت إسرائيل بشكل لا يمكن السكوت عليه والمقاومة ملتزمة بالقرار؟ ما هو السيناريو المحتمل؟ هل سترد اليونيفيل؟ هل سيرد الجيش؟ وماذا ستفعل إسرائيل في الحالين؟ هل ستسكت؟ يجيب الشاب الذي دخل مع أبوه: "ساعتها خلّي الدولة ترد. مش هيّه جابت الطوارئ؟ هل هم قوات ردع؟ ولمين؟" ثم يضيف بلهجة اليائس: "المهم إذا رجعت علقت قولوا لنا قبل بكام يوم حتى نهاجر."

موضوع الهجرة حساس جداً في الوسط المسيحي. ظل قلق يعبر في عيون أم هشام وأبو هشام. تقول الأخيرة ما يقلقها في كلام ابنها الثاني: "عندي شاب مهندس مدني، لو ملكتني العراق بكامله لا أرسله إلى هناك. ولكن ماذا أفعل؟ أعطوه في أربيل راتباً وقدره ألف دولار. أأمنعه من الذهاب؟ يعني لقد قمت بتربية خمسة شباب، ولكن لبلاد أخرى."

الهجرة أيضاً هي التي تقلق نورا، البائعة في السوبر ماركت القريب. تقول نورا (40 عاماً) وهي تقلي بعض البطاطا لـ "السندويتشات" التي طلبناها، إن كثافة الهجرة من الجنوب هي التصويت الأفضل على مدى ثقة أهله بمستقبله، مضيفة: "إذا كل سنتين سترجع الحرب، الأفضل أن نهاجر." ثم تسخر من "حجة الأسيرين" التي ساققتها إسرائيل في معرض تبريرها للحرب الفظيعة التي شنتها على لبنان، متسائلة: "من عقلك صدقت كرمى الجنديين عملوا كل هذا؟ أصلاً لم يوفروا أحداً: حتى إنهم قتلوا كنديين في عيترون، من آل الأخرس. سمعت بهم؟ ثم تغرف السيدة بالمصفاة من المقلاة شوابير بطاطا مذهب، وهي تقول ما يأخذ من غيرها أعوام متابعة ليفهمه: "إذا ما بيصير سلام بين الفلسطينية والإسرائيلية ما راح نرتاح. شو بدك بهالحكي." ■

(*) صحافية لبنانية.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx